

التواضع

عناصر الخطبة

تعريف التواضع وذكره في القرآن والسنة

أقسام التواضع وأسبابه

نماذج من تواضع النبي ﷺ

الأثار الواردة عن الصحابة والتابعين في مدح التواضع

بعض فوائد التواضع

التفصيل

اعلم أن للتواضع فضلٌ عظيم وأجرٌ جسيم، فهو نعمةٌ عظيمة، ومِنَّةٌ جسيمة، ومنحةٌ عظيمة، شأنه عظيم، ونفعه عظيم، له فضائل لا تحصى، وثمرات لا تفتنى، وله أهمية كبرى، وأسرار بديعة، وهو طريق النجاة، وسلم الوصول، ومطلب العارفين، ومطية الصالحين، وهو من أشرف العبادات وأجل الطاعات.

والتواضع من أجل الأعمال التي يحبها الله جل جلاله، ومن تواضع لله رفعه، والتواضع لا يكون إلا بصلاح القلب؛ لأن الله سبحانه وتعالى من حكمته إذا اطلع على سريرة العبد ووجد فيها الخير، أن يظهر ذلك لعباده ويكشفه، وَقَلَّ أَنْ يُعَيَّبَ عَبْدَ سُرِيرَةٍ خَيْرٍ إِلَّا وَأَظْهَرَهَا اللَّهُ فِي وَجْهِهِ وَلِسَانِهِ وَفَلَتَاتِ جَوَارِحِهِ وَأَرْكَانِهِ.

ومن تواضع لله طاب معدنه، وطاب قلبه، وزكت نفسه؛ لأنه يريد الله والدار الآخرة، ولا يتواضع إلا من عرف الله وعرف مقدار نعمته عليه، ولا يكون التواضع بالتشهي ولا بالتمني ولا بالتكلف ولا بالرياء، ولا بمحبة الثناء؛ ولكنه شعور صادق نابع من نفس مؤمنة صادقة، تريد ما عند الله سبحانه وتعالى. (١)

تعريف التواضع وذكره في القرآن والسنة

ولذلك عرف العلماء التواضع فقالوا إظهار التَّنَزُّلِ عن المرتبة لمن يراد تعظيمه. (٢)

وَقَالَ رُوَيْمٌ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ تَوَاضَعُ تَذَلُّ الْقُلُوبِ لِعَلَامِ الْغُيُوبِ.

يقول الحسن رضي الله عنه ((هَلْ تَدْرُونَ مَا التَّوَاضَعُ؟ التَّوَاضَعُ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ مَنَزِلِكَ فَلَا تَلْقَ مُسْلِمًا إِلَّا رَأَيْتَ أَنْ لَهُ عَلَيْكَ فَضْلًا)). (٣)

(١) شرح زاد المستقنع للشنقيطي (١٥٣ / ١٤).

(٢) مدارج السالكين (٦ / ١٣٤). وفتح الباري (١١ / ٣٤١)، دليل الفالحين لابن علان (٣ / ٥٠).

إن من نبذ خلق التواضع وتعالى وتكبر، إنما هو في حقيقة الأمر معتدٍ على مقام الألوهية، طالباً لنفسه العظمة والكبرياء، متناسياً حق الله تعالى عليه، متجرئاً على مولاه وخالقه ورازقه، منازع إياه صفة من صفات كماله وجلاله وجماله، إذ الكبرياء والعظمة له وحده. (٤)، (٥)، (٦)

(٣) التواضع والخمول لابن أبي الدنيا (ص: ١٥٢).

(٤) تعريفات أخرى للتواضع: التواضع هو: الاستسلام للحق وترك الاعتراض في الحكم.

التواضع إظهار الذل لمن يراد تعظيمه، وقيل هو تعظيم من فوّه لفضله. وسئل الفضيل عن التواضع فقال: يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله، وكذا قال ابن عطاء: التواضع قبول الحق من كل من قاله. وقيل لأبي يزيد البسطامي متى يكون الرجل متواضعاً؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً، ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه.

والتواضع: ضد التعالي يعني ألا يترفع الإنسان ولا يترفع على غيره، بعلم ولا نسب ولا مال ولا جاه ولا إمارة ولا وزارة ولا غير ذلك؛ بل الواجب على المرء أن يخفض جناحه للمؤمنين، أن يتواضع لهم كما كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة عند الله؛ رسول الله ﷺ يتواضع للمؤمنين، حتى إن الصبية لتمسك بيده لتأخذه إلى أي مكان تريد فيقضي حاجتها عليه الصلاة والسلام. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٥ / ٥٠) لمحمد علي بن محمد بن علان بن إبراهيم البكري الشافعي (المتوفى: ١٠٥٧هـ).

(٥) تعريف التواضع لغة: مصدر تواضع أي أظهر الضعة، وهو مأخوذ من مادة (وضع) التي تدل على الخفض للشيء وحطّه، يقال: وضعته بالأرض وضعاً، ووضعت المرأة ولدها.

والمواضع قوم ينقلون من أرض إلى أرض يسكنون بها، والوضع الرجل الدني، والدابة تضع في سيرها وضعاً وهو سير سهل يخالف المرفوع.

وقال الراغب: الوضع أعم من الحطّ ومنه الموضع قال تعالى {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ} [المائدة: ١٣] وقد يستعمل هذا في الإيجاد والخلق كما في قوله سبحانه {وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ} [الرحمن: ١٠] ويقال رجل وضع بين الضعة في مقابل: رفيع بين الرفعة.

وقال في الصّحاح ووضع الرجل (بالضم) يوضع ضعة وضعة أي صار وضعياً، ووضع منه فلان أي حطّ من درجته والتواضع التذلل، والاتّضاع أن تخفض رأس البعير لتضع قدمك على عنقه فتركب. (٥)

(٦) والفرق بين التواضع والخشوع: أن التواضع يقال فيما بين رفيع ووضيع، وأيضاً فالتواضع يعتبر بالأخلاق والأفعال الظاهرة والباطنة. والخشوع يقال باعتبار أفعال الجوارح، ولذلك قيل: إذا تواضع القلب خشعت الجوارح، قال تعالى: (خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ)، وقال تعالى: (وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ). (٦)

والذي يتأمل آيات القرآن الكريم يرى أنها جاءت بمدح التواضع والمتصفين به فقال تعالى {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: ٦٣].

يقول الحسن البصري رحمته الله "المؤمنون قومٌ ذُلٌّ، ذَلَّتْ وَاللَّهِ الْأَسْمَاعُ وَالْأَبْصَارُ وَالْجَوَارِحُ، حَتَّى يَخْسِبَهُمُ الْجَاهِلُ مَرَضَى، وَاللَّهُ مَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَإِنَّهُمْ لِأَصْحَاءُ الْقُلُوبِ، وَلَكِنْ دَخَلَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ مَا لَمْ يَدْخُلْ غَيْرُهُمْ، وَمَنْعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا عِلْمُهُمْ بِالْآخِرَةِ، وَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ وَاللَّهُ مَا أَحْزَنَهُمْ حُزْنَ النَّاسِ، وَلَا تَعَاظَمَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا طَلَبُوا بِهِ الْجَنَّةَ، أَبْكَاهُمْ الْخَوْفُ مِنَ النَّارِ، وَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَتَعَزَّ بِعِزِّ اللَّهِ، تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسْرَاتٍ، وَمَنْ لَمْ يَرِ اللَّهَ عَلَيْهِ نِعْمَةً إِلَّا فِي مَطْعَمٍ، أَوْ مَشْرَبٍ فَقَدْ قَلَّ عِلْمُهُ وَحَصَرَ عَذَابُهُ" (٧) ويقول الحسن رحمته الله في معنى الآية أيضاً: علماءٌ حلماؤ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ: أَصْحَابُ وَقَارٍ وَعِفَّةٍ لَا يَسْفَهُونَ. وَإِنْ سَفِهَ عَلَيْهِمْ حَلُمُوا. (٨)، (٩)

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث عياض بن حمار رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ)). (١٠) وَقَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٥٤].

لَمَّا كَانَ الذُّلُّ مِنْهُمْ ذُلًّا رَحِمَةً وَعَطْفًا وَشَفَقَةً وَإِخْبَاتٍ عَدَاهُ بِأَدَاةٍ عَلَى تَضَمِينًا لِمَعَانِي هَذِهِ الْأَفْعَالِ. فَإِنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِهِ ذُلُّ الْهَوَانِ الَّذِي صَاحِبُهُ ذَلِيلٌ. وَإِنَّهَا هُوَ ذُلُّ اللَّيْنِ وَالِانْتِقَادِ الَّذِي صَاحِبُهُ ذُلُولٌ، فَالْمُؤْمِنُ ذُلُولٌ.

ويقول الشيخ زكريا الأنصاري رحمته الله: وهو أعم من الخشوع لأنه يستعمل فيما بين العباد وفيما بينهم وبين الرب سبحانه وتعالى، والخشوع لا يستعمل إلا في الثاني، فلا يقال خشع العبد لمثله ويقال تواضع له. (٦)

من معاني التواضع أيضاً الذل، قال تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [المائدة: ٥٤]. قال تعالى {وَإِخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا} [الإسراء: ٢٤].

(٧) الزهد والرفائق لابن المبارك (١/ ١٣٤).

(٨) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣١٠).

(٩) وَالْهُونُ بِالْفَتْحِ: الرَّفْقُ وَاللَّيْنُ. وَالْهُونُ بِالضَّمِّ: الْهُونُ. فَالْمُتَوَاضِعُ مِنْهُ: صِفَةُ أَهْلِ الْإِيمَانِ. وَالْمُضْمُومُ: صِفَةُ أَهْلِ الْكُفْرَانِ. وَجَزَاؤُهُمْ مِنَ اللَّهِ النَّيْرَانُ.

(١٠) صحيح مسلم (٤/ ٢١٩٨) رقم ٦٤ (٢٨٦٥) وسنن أبي داود (٤/ ٢٧٤) رقم ٤٨٩٥ وغيرهما.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: ((مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ)). (١١)

وَقَوْلُهُ: {أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ} [المائدة: ٥٤] هُوَ مِنْ عِزَّةِ الْقُوَّةِ وَالْمُنْعَةِ وَالْغَلْبَةِ. قَالَ عَطَاءٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لِلْمُؤْمِنِينَ كَالْوَالِدِ لَوْلَدِهِ. وَعَلَى الْكَافِرِينَ كَالسَّبْعِ عَلَى فَرِسَتِهِ. كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى {أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: ٢٩] وَهَذَا عَكْسُ حَالٍ مَنْ قِيلَ فِيهِمْ:

كِبْرًا عَلَيْنَا، وَجُبْنَا عَنْ عَدُوِّكُمْ لَبِسَتْ الْخِلْتَانِ: الْكِبْرُ، وَالْجُبْنُ. (١٢)

وقال تعالى: (وَإِخْفُضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ) (الحجر: ٨٨)، وفي آية أخرى: (لَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (الشعراء: ٢١٥). أي تواضع؛ وذلك أن المتعالي والمترفع يرى نفسه أنه كالطير يسبح في جو السماء، فأمر أن يخفض جناحه وينزله للمؤمنين الذي أتبعوا النبي ﷺ. (١٣)

فالتواضع لا يزيد العبد إلا رفعة في الدنيا لأنه بالتواضع يعظم في القلوب وترتفع منزلته في النفوس فتواضعوا يرفعكم الله تعالى في الدنيا بوضع القبول في القلوب وإعظام المنزلة في الصدور وفي الآخرة بتكثير الأجر وإعظام القدر.

أقسام التواضع

- ١- التواضع للدين. وهو أن لا يعارض بمعقولٍ مَقُولًا. وَلَا يَتَّهَمَ لِلدِّينِ دَلِيلًا. وَلَا يَرَى إِلَى الْخِلَافِ سَبِيلًا. والتواضع للدين، هو الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان.
- ٢- أن ترضى بما رضى الحق به لنفسه عبدًا من المسلمين أخًا. وأن لا ترد على عدوك حقًا. وأن تقبل من المعتذر معاذيرهُ.

قَوْلُهُ: وَأَنْ لَا تُرَدَّ عَلَى عَدُوِّكَ حَقًّا، أَي لَا تَصِحْ لَكَ دَرَجَةُ التَّوَاضُعِ حَتَّى تَقْبَلَ الْحَقَّ مِنْ تَحِبُّ وَمَنْ تُبْغِضُ فَتَقْبَلُهُ مِنْ عَدُوِّكَ كَمَا تَقْبَلُهُ مِنْ وَلِيِّكَ. وَإِذَا لَمْ تُرَدَّ عَلَيْهِ حَقُّهُ، فَكَيْفَ تَمْنَعُهُ حَقًّا لَهُ قَبْلَكَ؟ بَلْ حَقِيقَةُ التَّوَاضُعِ أَنَّهُ إِذَا جَاءَكَ قَبْلَتُهُ مِنْهُ. وَإِذَا كَانَ لَهُ عَلَيْكَ حَقٌّ أَدَيْتَهُ إِلَيْهِ. فَلَا تَمْنَعُكَ عَدَاوَتُهُ مِنْ قَبُولِ حَقِّهِ، وَلَا مِنْ إِيْتَائِهِ إِيَّاهُ. وَأَمَّا قَبُولُكَ مِنَ الْمُعْتَذِرِ مَعَاذِيرَهُ، فَمَعْنَاهُ: أَنْ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ. ثُمَّ جَاءَ يَعْتَذِرُ مِنْ إِسَاءَتِهِ، فَإِنَّ التَّوَاضُعَ يُوجِبُ عَلَيْكَ قَبُولَ مَعْذِرَتِهِ، حَقًّا كَانَتْ أَوْ بَاطِلًا. وَتَكُلُّ سَرِيرَتُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى. كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْهُ فِي الْعَزْوِ. فَلَمَّا قَدِمَ جَاءُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ. فَقَبِلَ أَعْدَارَهُمْ. وَوَكَّلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى.

(١١) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٠١) رقم ٦٩ (٢٥٨٨)، وسنن الترمذي (٣/ ٤٤٤) رقم ٢٠٢٩ وغيرهما.

(١٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣١٠).

(١٣) شرح رياض الصالحين (٣/ ٥١٤) لمحمد بن صالح العثيمين (ت: ١٤٢١هـ).

وَعَلَامَةُ الْكُرَمِ وَالتَّوَّاضِعِ: أَنْكَ إِذَا رَأَيْتَ الحَلَلَ فِي عُدْرِهِ لَا تُوقِفُهُ عَلَيْهِ وَلَا تُحَاجُّهُ. وَقُلْ: يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَمَا تُقُولُ. وَلَوْ قُضِيَ شَيْءٌ لَكَانَ، وَالْمُقْدُورُ لَا مَدْفَعَ لَهُ. وَنَحْوُ ذَلِكَ. (١٤)

وقيل التواضع تواضعان أحدهما محمود والآخر مذموم والتواضع المحمود ترك التطاول على عباد الله والإزراء بهم والتواضع المذموم هو تواضع المرء لذي الدنيا رغبة في دنياه. (١٥)

أسباب التواضع وللتواضع أسباب لا يكون المسلم متخلقا به إلا بتحصيلها، وقد بينها الإمام ابن القيم رحمه الله بقوله: التواضع يتولد من العلم بالله سبحانه، ومعرفة أسمائه وصفاته، ونعوت جلاله، وتعظيمه، ومحبته وإجلاله، ومن معرفته بنفسه وتفاصيلها، وعيوب عملها وآفاتهما، فيتولد من بين ذلك كله خلق هو " التواضع "، وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذل والرحمة بعباده، فلا يرى له على أحد فضلا، ولا يرى له عند أحد حقاً، بل يرى الفضل للناس عليه، والحقوق لهم قبلك، وهذا خلق إنما يعطيه الله عز وجل من يحبّه، ويكرمه، ويقربه. (١٦)

يقول أبو حاتم بن حبان رحمه الله " مَا اسْتَجَلِبْتَ البَغْضَةَ بِمِثْلِ التَّكْبَرِ وَلَا اِكْتَسَبْتَ المَحَبَّةَ بِمِثْلِ التَّوَّاضِعِ وَمِنْ اسْتِطَالِ عَلَى الإِخْوَانِ فَلَا يَثْقَنَ مِنْهُمْ بِالصَّفَاءِ وَلَا يَجِبُ لِصَاحِبِ الكِبَرِ أَنْ يَطْمَعُ فِي حَسَنِ الثَّنَاءِ وَلَا تَكَادُ تَرَى تَائِهًا إِلَّا وَضِيعًا، فَالعَاقِلُ إِذَا رَأَى مِنْ هُوَ أَكْبَرَ سَنَا مِنْهُ تَوَّاضَعَ لَهُ وَقَالَ سَبَقَنِي إِلَى الإِسْلَامِ وَإِذَا رَأَى مِنْ هُوَ أَصْغَرَ سَنَا تَوَّاضَعَ لَهُ وَقَالَ سَبَقْتَهُ بِالدُّنُوبِ وَإِذَا رَأَى مِنْ هُوَ مِثْلَهُ عَدَهُ أَخًا فَكَيْفَ يَحْسُنُ تَكْبِرَ المَرءِ عَلَى أَخِيهِ وَلَا يَجِبُ اسْتِحْقَارُ أَحَدٍ لِأَنَّ العُودَ المُنْبُودَ رَبِّمَا انْتَفَعَ بِهِ فَحَكَ الرَّجُلُ بِهِ أذَنَهُ ". (١٧)

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّ هَذَا الحُلُقَ كَسَائِرِ الأَخْلَاقِ لَهُ طَرَفَانِ وَوَسْطٌ، فَطَرَفُهُ الَّذِي يَمِيلُ إِلَى الزِّيَادَةِ يُسَمَّى تَكْبُرًا، وَطَرَفُهُ يَمِيلُ إِلَى النُّقْصَانِ يُسَمَّى نَحَاسًا وَمَذَلَّةً، وَالْوَسْطُ يُسَمَّى تَوَّاضِعًا، وَالمُحْمُودُ أَنْ يَتَوَّاضَعَ فِي غَيْرِ مَذَلَّةٍ وَنَحَاسَةٍ، فَإِنَّ: كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمُورِ دَمِيمٌ. (١٨)

(١٤) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣١٦، ٣١٧).

(١٥) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (ص: ٥٩).

(١٦) الروح (١/ ٢٣٣).

(١٧) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان (ص: ٦٣).

(١٨) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الخلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢ هـ) (ص: ٢٤٦).

نماذج من تواضع النبي ﷺ في حياته ومع الآخرين

والتواضع خلق محمود؛ ولذلك تخلق به رسول الأمة ﷺ، فكان ﷺ هيناً المؤمنة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه بساماً، متواضعاً من غير ذلة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب رحيماً بكل مسلم حافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم. (١٩)

فعن محمد بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: كان ابن عباس رضي الله عنهما يحدث، أن الله، تبارك وتعالى أرسل إلى نبيه ﷺ ملكاً من الملائكة، ومعه جبريل، فقال الملك: إن الله يُخبرك بين أن تكون عبداً نبياً، وبين أن تكون ملكاً، فالتفت رسول الله ﷺ إلى جبريل كما تستشير، فأشار جبريل بيده أن تواضع، فقال رسول الله ﷺ: "بل أكون عبداً نبياً"، قال: فما أكل بعد تلك الكلمة طعاماً متكئاً. (٢٠)

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم"، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: "نعم، كنت أزعها على قرابيط لأهل مكة". (٢١)

قال العلماء الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أممتهم ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة وألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها ولأن تفرقتها أكثر من تفرق الإبل والبقر، وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله ما كان عليه من عظيم التواضع لربه والتصريح بامتته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء. (٢٢)

وعن عائشة رضي الله عنها، أنها سئلت: ما كان عمل رسول الله ﷺ في بيته؟ قالت: "ما كان إلا بشراً من البشر، كان يقلب ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه". (٢٣)

وعن أبي رفاعة العدوي رضي الله عنه قال "انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، قال: فقلت: يا رسول الله رجل غريب، جاء يسأل عن دينه، لا يدري ما دينه، قال: فأقبل عليّ رسول الله ﷺ، وترك خطبته حتى انتهت

(١٩) مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٣١٠).

(٢٠) السنن الكبرى للنسائي (٦ / ٢٥٧) رقم ٦٧١٠ بسند صحيح، وقد أشار الشيخ الألباني رضي الله عنه إلى تفصيل مهم عن هذا الحديث في السلسلة الضعيفة (١١ / ٦٨٨) وما بعدها، فليراجع فإنه مهم.

(٢١) صحيح البخاري (٣ / ٨٨) رقم ٢٢٦٢.

(٢٢) فتح الباري لابن حجر (٤ / ٤٤١).

(٢٣) صحيح أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢ / ٤٨٩) رقم ٥٦٧٥، وانظر السلسلة الصحيحة رقم ٦٧١.

إِلَيَّ، فَأَتَى بِكُرْسِيِّ، حَسِبْتُ فَوَائِمَهُ حَدِيدًا، قَالَ: فَقَعَدَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَجَعَلَ يَعْلَمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ، ثُمَّ أَتَى خُطْبَتَهُ، فَأَتَمَّ آخِرَهَا. " (٢٤)

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: لَمْ يَكُنْ شَخْصٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانُوا إِذَا رَأَوْهُ لَمْ يَقُومُوا لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كَرَاهِيَتِهِ لِذَلِكَ. (٢٥)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَقْبَلَ الْحَسَنَ، وَالْحُسَيْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَلَيْهِمَا قَوْمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَعْتُرَانِ وَيَقُومَانِ، فَزَلَّ فَأَخَذَهُمَا، فَصَعَدَ بِهِمَا الْمُنْبَرُ، ثُمَّ قَالَ: " صَدَقَ اللَّهُ: { إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ } [التغابن: ١٥]، رَأَيْتُ هَذَيْنِ فَلَمْ أَصْبِرْ "، ثُمَّ أَخَذَ فِي الْخُطْبَةِ. (٢٦)

وَعَنْ سَيَّارٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ ثَابِتِ الْبُنَانِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَمَرَّ بِصَبِيَّانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَحَدَّثَ ثَابِتٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَمَرَّ بِصَبِيَّانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، وَحَدَّثَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ " فَمَرَّ بِصَبِيَّانٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ ". (٢٧)

يقول ابن عثيمين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ينبغي على الإنسان إذا مرَّ على أحد أن يسلم عليه، وإذا كان هذا يقع من النبي ﷺ على الصبيان، فإننا نأسف لقوم يمرون بالكبار البالغين ولا يسلمون عليهم والعياذ بالله، قد لا يكون ذلك هجراً أو كراهة، لكن عدم مبالاة، وعدم اتباع للسنة، جهل، غفلة، وهم إن كانوا غير آثمين؛ لأنهم لم يتخذوا ذلك هجراً، لكنهم قد فاتهم خيرٌ كثير. (٢٨)

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: " إِنْ كَانَتْ الْأُمَّةُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهَا حَتَّى تَذَهَبَ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ، فِي حَاجَتِهَا ". (٢٩)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: " لَوْ دُعِيْتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ ". (٣٠)

(٢٤) صحيح مسلم (٢/ ٥٩٧) رقم (٨٧٦) وغيره.

(٢٥) صحيح أخرجه الترمذي في سننه (٤/ ٣٨٧) رقم ٢٧٥٤، وابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٣٩٨) رقم ٢٦٠٩٦، وأحمد في مسنده (١٩/ ٣٥٠) رقم ١٢٣٤٥، وانظر السلسلة الصحيحة (١/ ٦٩٨) رقم ٣٥٨.

(٢٦) صحيح أخرجه أبو داود في سننه (٢/ ٣٢٦) رقم ١١٠٩، وأحمد في مسنده (٢٢٩٩٥)، وابن حبان في صحيحه (٦٠٣٨)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (٤/ ٢٧٢) رقم ١٠١٦.

(٢٧) صحيح مسلم (٤/ ١٧٠٨) رقم ١٥ (٢١٦٨) واللفظ له، صحيح البخاري (٨/ ٥٥) رقم ٦٢٤٧.

(٢٨) شرح رياض الصالحين (٣/ ٥٢٧) لمحمد بن صالح العثيمين (ت: ١٤٢١هـ).

(٢٩) صحيح البخاري (٨/ ٢٠) رقم ٦٠٧٢، واللفظ لابن ماجه.

والكراع والذراع هو شيء بسيط من اللحم، فذراع الشاة معروف، والكراع هو اللحم الذي يكون فوق ظلف الشاة يسمى بالكراع، وهو شيء قليل، ولكن لتواضعه ﷺ الذي يريد أن يعلمه للدنيا كلها يقول: "لو دعيت إلى كراع أو ذراع لأجبت، ولو أهدي إلي ذراع أو كراع لقبلت" يعني يجيب الدعوة ولو كانت يسيرة، ويقبل الهدية ولو كانت بسيطة.

الأثار الواردة عن الصحابة والتابعين في مدح التواضع، وأمثلة من تواضعهم
عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: "إِنَّكُمْ لَتَعْفُلُونَ أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ: التَّوَّاضِعُ". (٣١)

وَقَسَمَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حُلًّا، فَبَعَثَ إِلَى مُعَاذِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حُلَّةً مُثَمَّنَةً. فَبَاعَهَا. وَاشْتَرَى بِثَمَنِهَا سِتَّةَ أَعْبِدٍ وَأَعْتَقَهُمْ. فَبَلَغَ ذَلِكَ عُمَرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ حُلَّةً دُونَهَا. فَعَاتَبَهُ مُعَاذٌ، فَقَالَ عُمَرُ: لِأَنَّكَ بَعَثَ الْأُولَى. فَقَالَ مُعَاذٌ: وَمَا عَلَيْكَ؟ اذْفَعْ لِي نَصِيبي. وَقَدْ حَلَفْتُ لِأَضْرِبَنَّ بِهَا رَأْسَكَ فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: رَأْسِي بَيْنَ يَدَيْكَ. وَقَدْ يَرْفُقُ الشَّابُّ بِالشَّيْخِ. (٣٢)
وَقَالَ بَعْضُهُمْ:

تَوَاضَعُهُ لِلنَّاسِ وَهُوَ رَفِيعٌ
رَفِيعًا وَعِنْدَ الْعَالَمِينَ وَضِيعٌ. (٣٣)

وَأَحْسَنُ أَخْلَاقِ الْفَتَى وَأَتْمَّتْهَا
وَأَفْبَحُ شَيْءٍ أَنْ يَرَى الْمُرءَ نَفْسَهُ

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضَةٍ وَعُمَرُ عَلَى نَاقَةٍ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ حُفَّيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَلَى عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِيْزَامٍ نَاقَتِهِ فَخَاصَّ بِهَا الْمُخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا، تَخْلَعُ حُفَّيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَى عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِيْزَامٍ

(٣٠) صحيح البخاري (٣/ ١٥٣) رقم ٢٥٦٨.

(٣١) «صحيح موقوفاً» أخرجه النسائي في الكبرى (١٠/ ٤٠٥) رقم ١١٨٥٢، وابن أبي شيبة في المصنف (١٣/ ٣٦٠) رقم ٣٥٨٨٤ وغيرهما.

(٣٢) مدارج السالكين لابن القيم (٢/ ٣١٥).

(٣٣) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨هـ) (٢/ ٢٣٢).

نَاقَتِكَ، تَخَوُّصِهَا الْمَخَاصِةَ؟ مَا يَسْرُنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ، فَقَالَ عُمَرُ: "أَوْهَ لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرِكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتَهُ نَكَالًا لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ". (٣٤)

وَعَنِ الشَّعْبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: رَكِبَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخَذَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِرِكَابِهِ، فَقَالَ لَهُ: لَا تَفْعَلْ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ: هَكَذَا أَمَرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعِلْمَانِنَا. فَقَالَ زَيْدٌ: أَرِنِي يَدَكَ. فَأَخْرَجَ يَدَهُ، فَقَبَّلَهَا زَيْدٌ وَقَالَ: هَكَذَا أَمَرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا ﷺ. (٣٥)

وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: "يَا ابْنَ آدَمَ، طَا الْأَرْضُ بِقَدَمِكَ، فَإِنَّمَا عَنْ قَلِيلٍ قَبْرُكَ، وَإِنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي هَدْمِ عُمْرِكَ مُنْذُ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمَّكَ". (٣٦)

وقال أبو العتاهية:

يس التشرّف رفع الطين بالطين	يامن تشرف بالدنيا وزينتها
فانظر إلى ملك في زي مسكين	إذا أردت شريف الناس كلهم
وذاك يصلح للدنيا وللدين. (٣٧)	ذاك الذي عظمت والله نعمته

وَعَنِ رَجَاءِ بْنِ حَيَوَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُومَتْ ثِيَابُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ خَلِيفَةُ بَاطِنِي عَشْرَ دَرَاهِمًا، فَذَكَرَ قَمِيصَهُ وَرِدَاءَهُ وَقِبَاءَهُ وَسَرَاوِيلَهُ وَعِمَامَتَهُ وَقَلَنْسُوتَهُ وَخُفَيْهِ. (٣٨)

وَرُوي أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنَّهُ لَيْلَةً ضَيْفٌ وَكَانَ يَكْتُبُ فَكَادَ السَّرَاجُ يُطْفَأُ فَقَالَ الضَّيْفُ أَقُومُ إِلَى الْمِصْبَاحِ فَأُصْلِحُهُ فَقَالَ لَيْسَ مِنْ كَرَمِ الرَّجُلِ أَنْ يَسْتَعْدِمَ ضَيْفَهُ قَالَ أَفَأُنْبِئُ الْغُلَامَ فَقَالَ هِيَ أَوْلُ نَوْمَةٍ نَامَهَا فقام وأخذ

(٣٤) المستدرک علی الصحیحین للحاکم (١/ ١١٩) رقم ٢٠٧ قال محقق المستدرک "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ لِاحْتِجَاجِهَا جَمِيعًا بِأَيُّوبَ بْنِ عَائِدِ الطَّائِيِّ وَسَائِرِ رَوَاتِهِ، وَلَمْ يَجْرَجَاهُ وَلَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَدِيثِ الْأَعْمَشِ، عَنْ قَيْسِ بْنِ مُسْلِمٍ". وانظر السلسلة الصحيحة (١/ ١١٨).

(٣٥) المجالسة وجواهر العلم للدينوري (٤/ ١٤٦) رقم ١٣١٤، الأملی للشجري (١/ ٩٤) رقم ٣٥٩.

(٣٦) الزهد والرفائق لابن المبارك (١/ ٢٩٢)، الزهد لأبي حاتم (ص: ٣٧) رقم ١٢.

(٣٧) العقد الفريد لأبي عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (ت: ٣٢٨هـ) (١/ ٣٦).

(٣٨) حلية الأولياء لأبي نعيم (٥/ ٣٢٢).

البطة وملاً المصباح زيتها فقال الضيف فمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين فقال ذهب وأنا عمر ورَجعت وأنا
عمر ما نقص مني شيء وخير الناس من كان عند الله متواضعاً. (٣٩)
وعن يحيى بن أبي كثير رحمه الله قال: "رأس التواضع ثلاث أن ترضى بالذنوب من شرف المجلس، وأن تبدأ من
لقية بالسلام، وأن تكره المدحة والسمة والرياء بالبر". (٤٠)
وأشد الكريزي:

تواضع إذا ما نلت في الناس رفعة	فإن رفيع القوم من يتواضع
ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً	فكم تحتها قوم هموا منك أرفع
وإن كنت في عز رفيع ومنعة	فكم مات من قوم هموا منك أرفع. (٤١)

وعن السري بن مغلّس رحمه الله، قال "عزوت راجلاً فنزلنا خربة للرؤم، فألقيت نفسي على ظهري، ورفعت
رجلي على جدار، فإذا هاتفت يهتف بي: "يا سري بن مغلّس، هكذا تجلس العبيد بين يدي أربابها". (٤٢)
يقول الإمام الشافعي رحمه الله: أرفع الناس قدرًا من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلًا من لا يرى فضله. (٤٣)
وإذا أنعم الله عليك بموهبة لست تراها في إخوانك، فلا تفسدها بالاستطالة عليهم بينك وبين نفسك،
وبالتحدث عنها كثيراً بينك وبينهم؛ فإن نصف الذكاء مع التواضع أحب إلى قلوب الناس وأنفع للمجتمع
من ذكاء كامل مع الغرور. (٤٤)
ولا يقع التواضع موضعه إلا بثلاث: أن يكون من تواضع إليه مستحقاً لهذا التواضع، وأن يكون عارفاً
بقيمته، وأن لا يلتبس التواضع بالذلة عند من يشاهدونه. (٤٥)

(٣٩) إحياء علوم الدين للغزالي (٣/٣٥٥).

(٤٠) التواضع والحمول لابن أبي الدنيا (ص: ١٥٤).

(٤١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص: ٦٢).

(٤٢) الزهد والرفائق للخطيب البغدادي (ص: ١١١) رقم ٨٧.

(٤٣) سير أعلام النبلاء ٩٩/١٠.

(٤٤) هكذا علمتني الحياة لمصطفى السباعي (المتوفى: ١٣٨٤هـ) (ص: ٨٨).

(٤٥) هكذا علمتني الحياة لمصطفى السباعي (ص: ٢٢٩).

فوائد التواضع

- ١- التواضع خلق كريم من أخلاق المؤمنين ودليل محبة رب العالمين.
- ٢- وهو طريق موصل إلى مرضاة الله وإلى جنته.
- ٣- وهو السبيل إلى القرب من الله ومن ثم القرب من الناس.
- ٤- التواضع عنوان سعادة العبد في الدارين.
- ٥- يحب الله المتواضعين ويكلؤهم برعايته ويحيطهم بعنايته.
- ٦- المتواضعون آمنون من عذاب الله يوم الفزع الأكبر.
- ٧- وهو دليل على حسن الخاتمة وعلى حسن الخلق.
- ٨- التواضع يؤدي إلى حصول النصر والبركة في المال والعمر. (٤٦)

والحمد لله رب العالمين